لبنان...
كما أراه...

بقلم: الدكتور صادق مكي(*)

إن أهم الحديث في الشعوب المتحضّرة حديث الوطن. وأفضل الانتماء هو الانتماء الوطني. ذلك أن الحضارة نقيض البداوة والجهل والعصبية والأنانية... وكل الآفات الخلقية والاجتماعية التي تدلّ على التخلّف والبدائية، ولعل الوطنية أرقى درجات الحضارة، بل إنها الإطار الصحيح لاستمرار الحضارة والمحافظة عليها، كما أنها الإطار الصحيح لكل تمدّن ورقيّ اجتماعي. ذلك أن الانتماء إلى الأرض هو أول الانتماءات عند الإنسان، وأثبتها. وهو الذي يجذّر الإنسان في موطنه كما تتجذّر الشجرة في الأرض. ولولا هذا التجذّر لما استطاعت الشجرة أن تثبت في وجه الرياح العاتية، ولما استطاع الإنسان أن يتطوّر، ولبقي في عصر الكهوف والمغاور، وما كانت حضارة، ولا كان رقي.

ولمّا كان الانتماء إلى الوطن أول الانتماءات بالنسبة للإنسان، فقد أدركت الأمم والشعوب أهمية هذا الانتماء، ونظّمته، ووضعت له قوانين تحدّه وتحميه وتعمّقه، حتى تحمي الأوطان والمواطنين، وحتى تقيم وطناً عزيز الجانب، موفور الكرامة. كما فرضت تدابير على كل المواطنين واعتبرت هذه التدابير ـ ومنها خدمة العلم، والتجنيد الإجباري، وقوانين الطوارىء... ـ من الأمور اللازمة للمحافظة على الأوطان وصيانتها، كما اعتبرَتها فريضة على المواطن، واجبة عليه نحو قُدْسِ الأقْداس، وهو الوطن، لا يُعفى منها أحد أبداً. واعتبرت التهرّب منها خيانة تقابل بأشدّ العقوبات. كما صارت هذه التدابير عنوان شرف ومجد للإنسان يأتيها مختاراً، وبإرادته، بل يقدم عليها بلهفة وشوق.

وللأحاديث مناسبات، فلا يكون حديث بدون سبب. وإذا كان حديث الوطن أهم الحديث، فهو أيضاً لا يكون بدون سبب. والحديث بدون سبب يأتي في غير محلّه. ونربأ بالحديث أن يكون في غير محلّه. ولكن ساقنا إليه ما شهدناه من أحداث كمّت الأفواه،

(*) دكتور في الأدب العربي.

وحطّمت الأقلام، وأخرست الألسن، وأرهبت فأرعبت... وما عاد يرتفع معها من صوت إلّا صوت الجنون والوتر والأحقاد... نغلّفها حيناً بغلاف الوطنية، وحيناً آخر بغلاف الحق... وغير ذلك... والمهمّ أن الإنسان مات في وطني ضحية الحرب، وانتُهكت حرمة وطني في الحرب، وعشنا الشقاء والعذاب والألم... وانتُهكت شرعة حقوق الإنسان، كما انتُهكت الشرائع جميعاً في وطن الشرائع ووطن الإنسان... ووقعنا في التخلف، ونحن ندّعي الحضارة، وصار وطننا غاباً ونحن ندّعي العدالة... واستبحنا وطننا ونحن ندّعي الوطنية...

أفلا يصير حديث الوطنية واجباً في مثل هذه الظروف؟! بل إننا نرى الساكت عن حديث الوطنية عدواً للوطن. وصار هذا الحديث: حديث الوطنية واجباً أن يكون حديث الصدق والحق، ولو على أنفسنا... كما صار واجباً علينا أن نعود إلى أصالتنا القديمة، ونستثير في نفوسنا قِيَماً قديمة كانت راسخة فينا. كما صار واجباً علينا أن ننظر جيّداً، فنرى جيداً، ونرى الحقيقة والضلال، ونقول: هذه حقيقة وهذا ضلال. ونرى بالعينين معاً، فلا نعمى هنا ونبصر هناك، أو نرى هذا ولا نرى ذاك... ويبقى الصدق رائدنا، وتبقى مصلحة الوطن هي التي تقودنا في الحديث، والرغبة في المساهمة في بناء الوطن غاية الغايات عندنا... نقول ما نرى وما نعرف، ولا نطمس الحقيقة بل نظهرها للعيان، ولعل في إظهارها ما يجعلنا نعرف بعضنا بعضاً، فيزول الوهم، ونقترب من الحقيقة، ونرى أن ما اختلفنا عليه ما كان موضع خلاف بيننا.

وإذا كنا قد وقعنا في وهمٍ هو أيُّنا يحبّ لبنان أكثر... فإن الوهم قد أغرقنا في بحر من الدماء... وسبحنا في هذا البحر حتى كدنا نغرق فيه. وحتى نخلص من هذا الوهم، كان لنا هذا الحديث.

● لبنان في كتب التاريخ:

أولاً: في الكتاب المقدس:

ورد في الكتاب المقدس ذكر للبنان في أماكن عديدة[١]، كما ورد فيه أيضاً حديث عن صور وصيدا وحرمون وأرنون[٢]... وعن علاقة الملك سليمان بالملك حيرام ملك صور[٣]. كما تحدث الكتاب المقدس أيضاً عن أرز لبنان وخشب الأرز، في أمكنة متعددة.

وفي الكتاب المقدس أيضاً أن لبنان جزء من «الأرض المقدسة»[٤]، وهو ـ لبنان ـ

---

(١) سفر تثنية الاشتراع، ص ٣١٩. وسفر يشوع، ص ٣٦١ و٣٧٤. (المطبعة الكاثوليكية).

(٢) سفر يشوع، الفصل الحادي عشر، ص ٣٨٠، والفصل الثاني عشر، ص ٣٨١، والفصل الثالث عشر، ص ٣٨٢. (المطبعة الكاثوليكية).

(٣) سفر الملوك الثاني، ص ٥٢٦. وسفر الملوك الثالث، ص ٥٧٦ و٥٧٩ و٥٨١ و٥٨٩.

(٤) ويسمّيها «الأرض الصالحة»، ص ٣٠٣.

منطقة تمتدّ من جبل حرمون شمالاً[٥] إلى مدخل حماه[٦]، فقد ورد فيه «... وأرض الجبليين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماه»[٧].

ثانياً: لبنان في كتب المسلمين:

وتحدّثت كتب المسلمين عن لبنان. فورد في القرآن الكريم ذكر «للأرض المقدسة» في سياق الحديث عن بني إسرائيل. فقد ورد في سورة المائدة قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين»[٨].

وبالعودة إلى كتب التفاسير، نجد أن لبنان يدخل ضمن هذه «الأرض المقدسة». فقد ورد في تفسير هذه الآية: «وقد وصف الأرض بالمقدسة. وقد فسروه بالمُطهَّرة من الشرك لسكون الأنبياء والمؤمنين فيها. ولم يرد في القرآن الكريم ما يفسّر هذه الكلمة. والذي يمكن أن يستفاد منه ما يقرب من هذا المعنى قوله تعالى: «إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله» (أسرى: ١). وقوله: «وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضْعَفون مشارق الأرض ومغاربَها التي باركنا فيها» (الأعراف: ١٣٧). وليست المباركة في الأرض إلّا جعل الخير الكثير فيها. ومن الخير الكثير إقامة الدين وإذهاب قذارة الشرك»[٩].

وورد في تفسير «روح المعاني» للألوسي، ما يلي: «والأرض المقدسة هي ـ كما رُوي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والسدّي وابن زيد ـ بيت المقدس. وقال الزَجّاج: دمشق وفلسطين والأردن. وقال مجاهد: هي أرض الطور وما حوله. وعن مُعاذ بن جَبَل: هي ما بين الفرات وعريش مصر. والتقديس التطهير. ووصفت تلك الأرض بذلك إما لأنها مطهّرة من الشرك، حيث جُعِلَتْ مسكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو لأنها مطهّرة في الآفات. وغَلَبَةِ الجبارين عليها، لا يُخْرِجُها عن أن تكون مقدسة، أو لأنها طُهِّرَتْ من القحط والجوع. وقيل: سُمّيت مقدسة لأن فيها المكان الذي يُتقدَّسُ فيه من الذنوب»[١٠].

وفي «تاريخ الرسل والملوك» للطبري: «إن آدم لمّا أُهْبِطَ إلى الأرض فرأى سَعَتَها ولم ير فيها أحداً غيره قال: يا رب، أما لأرضك هذه عامر يسبّح بحمدك ويقدس لك غيري!؟ قال الله: إني سأجعل فيها من ولدك من يُسبِّح ويقدّسني. وسأجعل فيها بيوتاً تُرفع لذكري، ويسبّح فيها خلقي، ويُذكر فيها اسمي. وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخُصُّه بكرامتي، وأوتره باسمي، وأسمّيه بيتي، أُنْطِقُهُ بعظمتي، وعليه وضعت جلالي. ثم أنا مع ذلك في كل شيء، ومع كل شيء، أجعل ذلك البيت حَرَماً آمناً يَحْرُمُ بحرمته من حوله ومن

---

(٥) سفر يشوع، الفصل الحادي عشر، ص ٣٨٠.

(٦ و٧) سفر يشوع، الفصل الثالث عشر، ص ٣٨٢.

(٨) الآية ٢١.

(٩) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الجزء الخامس، ص ٢٨٨، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

(١٠) الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٦.

تحته ومن فوقه. فمن حرّمه بحُرْمتي استوجب بذلك كرامتي. ومن أخاف أهله فيه، فقد أخفر ذمتي، وأباح حرمتي، أجعله أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركاً. يأتونه شُعْباً غُبْراً على كل ضامر من كل فجّ عميق، يَرُجّون بالتلبية رجيجاً، ويَتّجون بالبكاء تجيجاً، ويَعُجّون بالتكبير عجيجاً. فمن اعتمده ولا يريد غيره فقد وفد إليّ وزارني وضافني. وحقٌّ على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، ووأن يُسْعِفَ كُلاًّ بحاجته، تَعْمُرُهُ يا آدم ما كُنْتَ حياً، ثم تَعْمُرُهُ الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أُمّة بعد أمّة، وقرناً بعد قرن..»[١١].

ورد أيضاً: «وأوصى الله تعالى إلى آدم: إن لي حَرَماً بحيال عرشي، فانطلق فابنِ لي فيه بيتاً، ثم حُفَّ به كما رأيت ملائكي يحفّون بعرشي. فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي. فقال آدم: أي رب: فكيف لي بذلك؟ لست أقوى عليه ولا أهتدي له. فقيّض الله له ملكاً فانطلق به نحو مكة. فكان آدم إذا مرّ بروضةٍ ومكان يعجبه قال للملك: انزل بنا ها هنا. فيقول له الملك: مكانك. حتى قَدِمَ مكة. فكان كل كل مكان نزل به صار عمراناً. وكل مكان تعدّاه صار مغاور وقفارا. فبنى البيت من خمسة أجبل: من طور سيناء، وطور زيتون **ولبنان** والجودي. وبنى قواعده من حِراء. فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسك كلها التي تفعلها الناس اليوم. ثم قدم به مكة، فطاف البيت أسبوعاً، ثم رجع إلى أرض الهند، فمات على بَوْذ»[١٢].

وورد في «معجم البلدان» لياقوت الحموي عن لبنان ما يلي: «لُبنان بالضم، وآخره نون. قال رجل لآخر: لي إليك حُوَيْجَةٌ. فقال: لا أقضيها حتى تكون لبنانية، أي مثل لبنان، وهو اسم جبل، وهو فُعلان منصرف، كذا قال الأزهري. ولبنان جبل مُطِلٌّ على حمص يجيء من الحرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتّصل بالشام. فما كان بفلسطين فهو جبل الحَمَل. وما كان بالأردن فهو جبل الجليل، وبدمشق سنير[١٣]، وبحلب وحماة وحمص لبنان. ويتّصل بأنطاكية المُصَيْصَة فيُسمى هناك اللُّكام. ثم يمتد إلى ملطية وسُمَيْساط وقاليقلا إلى بحر الخَزَر فيسمّى هناك القبق. وقيل: إن في هذا الجبل سبعين لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان. وفي هذا الجبل المسمّى بلبنان كورة بحمص جليلة، وفيه من جميع الفواكه والزرع من غير أن يزرعها أحد، وفيه يكون الأبدال من الصالحين. وقال أحمد بن الحسين ابن حيدرة، المعروف بابن الخراساني الطرابلسي:

دعوني لقاً في الحرب أطفو وأرسب ... ولا تنسبوني فالقواضب تُنْسَبُ
وإن جهلت جُهال قومي فضائلي ... فقد عرفت فضلي مَعَدٌّ ويَعْرُبُ
ولا تعتبوني إذ خرجت مغاضباً ... فمن في بعض ساحل الشام يغضب

---

(١١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، ص ١٣١، دار المعارف بمصر. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الأول، ص ٣٩، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥.

(١٢) الطبري، تاريخ الرُسُل والملوك، الجزء الأول، ص ١٢٤، دار المعارف بمصر. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الأول، ص ٣٨، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥.

(١٣) جبل سنير: جبل الشيخ أو جبل حرمون (المنجد).

وكيف التذاذي ماء دجلة مُعْرقاً وأمواه لبنان ألذ وأعذب
فما لي وللأيام لا دُرَّ درُّها تُشَرِّق بي طوراً وطوراً تُغَرِّبُ[١٤]

ثالثاً: لبنان في كتب المؤرّخين المحدثين:

وجاء في «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» في الحديث عن لبنان، ما يلي: «وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعاً شبيهاً بالارتفاعات الألبية في جبال لبنان التي تمتدّ من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالي صور»[١٥].

وجاء فيه أيضاً ما يلي: «وفلسطين من الوجهة الطبقية هي امتداد لبنان باتجاه الجنوب. وسهل لبنان الساحلي يستمر في سهل صارونة المتموّج الذي يمتدّ من الكرمل إلى جنوبي يافا، ويتّصل بساحل المنطقة الفلسطينية (فلسطيا). وتستمر سلسلة سورية الغربية جنوبي انهدام القاسمية في هضاب ومرتفعات الجليل الأعلى؛ وهو بالواقع قسم منعزل من جبال لبنان وفي سلسلة التلال المنخفضة المعروفة باسم الجليل الأدنى. وتبلغ مرتفعات الجليل الأعلى ذروتها في جبل جرمق شمالي صفد حيث تبلغ ٣٩٣٥ قدماً، وهي أعلى قمة في فلسطين»[١٦].

كما ورد فيه: «تشكّل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة في تضاريس سورية. وتبدأ السلسلة في نقطة جنوبي حمص. وتقابل لبنان الغربي بلبنان الشرقي على طول واحد، وارتفاع واحد تقريباً...»[١٧].

وجاء في خطط الشام: «وجبل سنير ـ أي لبنان الشرقي ـ ويدخل فيه جبل قلمون ووادي التيم»[١٨].

● لبنان الوطن:

من كل ما تقدّم نجد أن «لبنان» في المفهوم العام ـ دون المفهوم السياسي اليوم ـ يعني منطقة من الأرض، في بلاد الشام وبلاد العرب[١٩]، لها من جودة التربة، وطيب المناخ، ووفرة المياه، وكثرة الخيرات... ما جعله يضاهي أكثر بقاع الأرض خصباً في العالم، ومنها بلاد العراق... كما ورد في شعر ابن الخراساني الطرابلسي. وهو في المناطق التي كان ينظر إليها نظرة خاصة منذ أقدم العصور، بل منذ الخليقة مما جعل الناس يهتمّون بها، ويولونها من العناية ما لا يولون سواها، وجعل لها في النفوس مكانة مرموقة. وتناقلت

---

(١٤) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، المجلد الخامس، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٧. ص ١١
(١٥) حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين؛ ج ١، ص ٣٢.
(١٦) المرجع السابق، ص ٣٩.
(١٧) المرجع السابق، ص ٤٣ و٤٤.
(١٨) كرد علي، محمد، خطط الشام، ج ١، ص ٢٧. الطبعة الثالثة، مكتبة النوري، دمشق.
(١٩) يراجع ما ورد في معجم البلدان، ص ١١.

الأجيال هذه المكانة، تحملها في النفوس جيلاً بعد جيل، حتى وصلت إلينا. وبقيت للبنان خصوصيات تشير إليها المصادر والمراجع بشكل اجمالي أو تفصيلي.

إلا أن السياسة ـ وتقوم في الأصل على القوّة والأهواء والمصالح ـ كثيراً ما لا تأتلف مع الواقع، فتلعب يدها في كل شيء، حتى في الأوطان في شكلها ومصيرها وأهلها... وتحدّها بحدود سياسية غير حدود العرف والواقع، ويكون على الناس لزاماً أن يقبلوا هذه السياسة ويذعنوا لها حيناً بعد حين. وقد يتمرّدون عليها ـ حيناً بعد حين أيضاً ـ فيجري تغيير وتبديل في السياسة، وبالتالي، في واقع الأوطان وحدودها. فيقوى فخر الدين، مثلاً، فيكبر لبنان، ويُسْتَضْعَفُ الشعبُ فيصبح لبنان محافظة فقط، ويكون لها نظام يكرّس واقعاً سياسياً يعتبر في الأصل شاذاً عن الواقع التاريخي، كما حصل في نظام المتصرفية الذي حُكِمَ به لبنان مدةً من الزمن.

وإذا كان العالم اليوم يسير ـ ولو كلامياً ـ باتجاه الاستقرار السياسي، المتمثّل بالاعتراف بحدود الأوطان ـ كل الأوطان ـ حدوداً نهائيةً تكرّسها الاتفاقات الدولية، وتحترمها الدول والشعوب، وتحافظ عليها ـ ولو بالظاهر أيضاً، ويعتبر احتلال أرض بالقوة عملاً ممنوعاً وغير مشروع... مما يخالف تطلّعات بعض الشعوب، ويناقض كثيراً من التطلّعات والطموحات... إلّا أن الشعوب قد ارتضت ـ في معظمها ـ هذا المبدأ، لما فيه من استقرار سياسي مأمول، ولما فيه من حماية للضعفاء يطمحون إليها ولو كانوا لا يستطيعون تحقيقها دائماً.

ونحن، وإن كُنا نرى تناقضات السياسة الدولية، وندرك أن هذه السياسة الدولية ترتكز أساساً على المصالح والقوة، بما يجعلها غير موثوقة تمام الثقة... إلّا أننا ارتضينا لبنان «وطناً نهائياً» لجميع اللبنانيين. ونفهم من هذا التعبير ما يلي:

١ ـ إن لبنان دولة ذات سيادة، وهو وطن للّبنانيين ـ جميع اللبنانيين ـ دون تمييز في ذلك بين إنسان وإنسان، ولا بين منطقة ومنطقة. فلبنان وطني من أعلى جباله إلى شواطئه، ومن شماله إلى جنوبه... ومن شرقه إلى غربه، وهو عزيز عندي، أثير لديّ في كل ذرّة من ترابه.

٢ ـ إن الحديث عن لبنان على هذا النحو لا يجعلني منعزلاً عن واقعي الجغرافي والإقليمي، ولا يحدّني عن الاتصال بالعالم كله، بانفتاح، ومحبّة وإنسانية وتفاهم مع الجميع، واحترام متبادل.

٣ ـ يسير العالم اليوم باتّجاه حضارة حديثة تفتح أبوابها للجميع، ويُسْهِمُ في إرساء دعائمها كل قادر على ذلك. مع أنه لا يستطيع الإسهام في هذه الحضارة إلّا كل إنسان توفّرت فيه مقوّمات عديدة. ولبنان ـ قديماً وحديثاً ـ أسهم إسهاماً عظيماً في مسيرة التطوّر الحضاري عبر العصور. وهو الآن مدعوّ لمتابعة هذه الإسهام في مضمار الحضارة الإنسانية، بجميع أبنائه.. ولا يجوز له أن يتخلّف عن ذلك.

٤ ـ كان الإنسان في لبنان ـ منذ القديم ـ مِحْتَرَماً في ذاته، كما كان قوّة خلّاقة مبدعة، وذات طرح لا يُحدّ... استفاد منه اللبنانيون وجميع الناس... وهكذا يجب أن يبقى الإنسان في لبنان قيمة في ذاته، مهما كان انتماؤه الديني أو الفكري، ودون أن يكون في هذا الإنتماء الفكري ما يهدّد سلامة الوطن وسلامة الإنسان.

٥ ـ إن المنارة التي شعّت في كل اتجاه، تؤنس الخائفين، وترشد الضائعين التائهين، وتطمئن المستوحشين... يجب أن تبقى مغارة تشع فتؤنس، وترشد وتُطَمْئِنُ.. ولا يجوز أن نهدمها نحن بأيدينا، بل يجب أن نصونها ونجملها لأنه: هل يمكن أن يكون بعد التهديم عُمران؟!

● لبنان أرض مقدّسة:

من النصوص التي رأيناها سابقاً، نستنتج أنها تؤكّد على قدسية لبنان الأرض في عرف العالم كلّه، منذ الخليقة، وبكل شبر من أرضه وذرّة تراب من ذرّاته، وكل مكان فيه. وما يهمّنا ـ اليوم ـ لبنان الوطن في حدوده الدولية المعترف بها، ودونما أي شعور انعزالي أو أناني... ذلك أن العصر الحديث ـ كما أسلفنا ـ يعترف بحدود دولية لكل بلد، ويعتبر احترام هذه الحدود واجب المجتمع الدولي، ويحارب كل أخذٍ للأرض بالقوة... وقد ورد في الكتاب المقدّس أن لبنان جزء من «الأرض الصالحة»[٢٠] وفي القرآن الكريم هو جزء من «الأرض المقدسة»[٢١]، وهي بهذا «مطهّرة من الشرك»[٢٢] وهي «مسكن الأنبياء»[٢٣]، و«لا يغلب عليها الجبارون»[٢٤]، و«لا يصيب أهلها قحط ولا جوع»[٢٥] وفيها «يتقدَّسُ من الذنوب»[٢٦]. ومن حجارة لبنان ـ وغيره من الجبال ـ بُنيت الكعبة التي هي أول بيت وُضع للناس. كما ورد في الطبري وابن الأثير[٢٧]. وفي لبنان «يكون الأبدال من الصالحين»[٢٨].

من كل هذه النصوص نجد أن أرض لبنان أرض مقدّسة، بإرادة إلهية. وهي جزء من أرض أوسع أرادها الله تعالى مطهّرة، وأرادها أن تكون أرض الخير والجمال وأرض الصالحين والأنبياء. وبهذا المعنى ليس غريباً أن ترى فيها بقاعاً وأرضين تسمّت بأسماء يفوح منها عطر القداسة والتبريك. تبدأ بجبل حرمون، وتمرّ بجبل الريحان، وتتّصل منه بجبل الباروك، وتكمل حتى تصل إلى وادي قاديشا[٢٩]... ومن يبحث في هذا الموضوع يجد الكثير من الروايات والأخبار التي جعلت لبنان محطّ أنظار الناس عبر العصور، كما يعرف منه أهمية هذا الوطن وخدماته للحضارة في مختلف ظواهرها وتوجّهاتها:

---

(٢٠) الصفحة ٢٠٣.
(٢١) سورة المائدة، الآية ٢١.
(٢٢) ـ (٢٦) الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء السادس.
(٢٧) الطبري، الجزء الأول، ص ١٢٤؛ وابن الأثير، المجلد الأول، ص ٣٨.
(٢٨) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، الجزء الخامس، ص ١١.
(٢٩) يراجع بهذا الخصوص: أسماء المدن والقرى اللبنانية لأنيس فريحة، ص ١٧ و١٥٧ و٢٥٨...

● قدسية الأرض و... الشعب:

على أننا نرى في هذا المجال أن التقديس هنا للأرض بما هي أرض، وأن التبريك يكون للأرض في ذاتها. وأن هذا التبريك لا يطال الإنسان بصورة محتّمة. بل إن الإنسان يسعى جاهداً لأن يسكن هذه الأرض المقدسة، فيتبرّك هو الآخر من هذه القدسية ويستفيد منها، ولكن بشروط يجب أن تتوافر فيه، ومنها شروط نفسية ومسلكية وعقائدية وخلقية... كما يمكن للأشرار أن يسكنوا أرضاً مقدّسة فيدنّسوها. وبهذا، فقد أمر الله تعالى نبيّه ابراهيم وابنه، اسماعيل، عليهما السلام، أن يطهّرا بيت الله ـ الكعبة ـ من الشرك والأصنام والأوثان[٣٠].. ومن المشركين وعبدة هذه الأصنام، والكافرين بنعمة الله، والمتكبّرين عن عبادته.

وعلى هذا، فإننا لا نرى أن قدسية أرض لبنان تجعل من اللبنانيين شعباً مقدّساً بالضرورة، لأن هذه القداسة التي يسعى إليها بعض الناس تكون نعمة إلهية لا تنزل على الإنسان إلّا إذا استطاع الإنسان أن يرقى بنفسه درجات في سُلَّم القدسية، ويطهّر نفسه من أدران الشرّ والسوء، ويُفْلِتَ في شباك الشيطان، ويصير أهلاً لأن تحلّ عليه النعمة الإلهية بالتقديس والتبريك، فينال عهد الله تعالى الذي (لا ينالُ عهدُهُ الظالمين)[٣١].

● كيف يستحقّ الإنسان القداسة؟

أشرنا إلى أن القداسة فعل تبريك من الله تعالى للإنسان إذا استطاع هذا الإنسان أن يرتقي هو أولاً في سُلَّم القدسية درجات ترفعه فوق مستوى الناس العاديين، بما استطاع به أن ينقي نفسه من أدران الشر، ويسير بها في طريق الخير، وفي تحقيق الإرادة الإلهية في الخليقة.

وتتمثّل هذه الإرادة الإلهية في أمور يأتي في أولها مبدأ المساواة، والنفع العام للناس، والمحبّة والعمل بوصايا الله تعالى.

أما في موضوع **المساواة**، فقد خلق الله تعالى الناس متساوين من حيث المبدأ، ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات. فقد خلق الله تعالى الناس وفي نفس واحدة[٣٢]. كما خلق الله الناس جميعاً «من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٣٣]... وفي الحديث الشريف: «كلكم لآدم، وآدم من تراب»[٣٤]. وفيه أيضاً:

---

(٣٠) سورة الحج، الآية ٢٦؛ وسورة البقرة، الآية ١٢٥.
(٣١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.
(٣٢) سورة النساء، الآية ١؛ والأعراف، الآية ١٨٩ والزُمَر، الآية ٦.
(٣٣) الحجرات، الآية ١٣.
(٣٤) حديث شريف.

«الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[٣٥]. وفيه أيضاً: «الخلق كلُّهُم عيال الله، وأحبُّهُم إليه أنفعهم لعياله»[٣٦].

وقد أرست هذه التعاليم مبدأ المساواة في الخليقة. وإن كان من تمييز بين الناس، فيقوم على قاعدة التقديم والبذل والعطاء في سبيل الإنسانية، وإقامة المجتمع الفاضل وازدهاره. وقد تبنّت الأمم والشعوب هذا المبدأ في المساواة ـ وهو مبدأ إلهي في الأصل ـ وقامت شرعة حقوق الإنسان على هذا الأساس. هذا بصرف النظر عن إمكانية تحقي هذا المبدأ في الخلق، والخروقات التي يقوم بها الناس لمبدأ المساواة، متذرّعين بحجج مختلفة. وهذه الخروقات للمبدأ، وعدم قدرة الإنسان على تطبيقه لا تعني نقضه. والاستغناء عنه، لأنه شريعة إلهية. وهذه الشريعة الإلهية لا تنقضها إرادة الإنسان وتصرفاته. ونبقى مسؤولين عنها أمام السماء. وكل إخلال بهذا المبدأ إخلال بشريعة السماء.

وأما المبدأ الثاني فهو مبدأ **النفع العام للناس**، ويأتي هذا المبدأ متلازماً مع المبدأ الأوّل ـ المساواة ـ وكلاهما يتّصل بمبدأ الأخوّة بين الناس، إذ أن الناس جميعاً أولاد آدم، وهم بذلك أخوة. والأخوة متساوون في الحقوق والواجبات. كما أن من واجب الإنسان أن يعمل ما فيه منفعة أخيه الإنسان، وليس ما فيه منفعته الشخصية فقط. وبذلك تدفع الشريعة الإلهية عن المجتمع شراً الأنانية، وتعلّم الإنسان كيف يكون نافعاً للآخرين، وهذا النفع للناس، وبالتالي للمجتمع، هو الذي يقرّب الإنسان من الله ويجعله أثير المكانة عنده. وذلك كله حتى يقوم المجتمع الفاضل الذي يتعاون أفراده على ما يؤمن مصلحة الجميع، ويحقّق للمجتمع الرفاهية والسعادة.

وأما مبدأ **المحبة**، فهو من المبادىء الأساسية التي تبنى عليها الحياة على الأرض وقد أمرت بها الأديان جميعاً. وصارت شعار المسيحية والإسلام على حدّ سواء، وربطها الإسلام بالإيمان، واعتبر الإيمان الذي لا يقوم على أساس المحبة باطلاً، فقد قال رسول الله (ﷺ): «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[٣٧]. و«تحابّوا كالأخوان...»[٣٨].

وهذه المحبّة لا تكون مجرّد شعور في النفس، بل هي مواقف وأعمال، يسعى فيها الإنسان لما يُحِقُّ الحق، ويبطل الباطل، ويساعد الناس في كل عمل ممكن، ويؤمن مصالحهم، ويحافظ عليهم... حتى لو كانوا أعداءه، وتمثّل ذلك في قول السيد المسيح عليه السلام: «واغفر لهم يا أبتاه فإنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» وفي قول محمدٍ عليه السلام: «أحبّوا أعداءكم»...

---

(٣٥) حديث شريف.
(٣٦) حديث شريف.
(٣٧) حديث شريف.
(٣٨) حديث شريف.

وفي سبيل المحافظة على المجتمع الإنساني وصيانته، وجعله مجتمعاً فاضلاً كما تقتضي الإرادة الإلهية، فقد فرض الله تعالى فروضاً على الإنسان، وسنَّ شريعته في كل وصايا تجعل الإنسان الذي يعمل بمقتضاها وينفّذها أقرب إلى الله، وأحبّ إليه، يكرّمه الله تعالى ويحبّه. ومن هذه الوصايا ما هو إيجابي، ويجب على الإنسان فعله، ومنها ما هو سلبي ويجب على الإنسان الإبتعاد عنه. ومن **الوصايا الإيجابية** واجب الإنسان أن: ينصح للناس ويعفو عن المخطئين، ويحسن إلى الناس جميعاً، والتوبة من الذنوب، وتقوى الله، وكظم الغيظ، والوفاء بالعهد، والصبر على الشدائد، والعدل بين الناس، والجهاد في سبيل الله، والعناية بالمؤمنين والصالحين من الناس، والتواضع، والتصدّق على المحتاجين... وأما **الوصايا السلبية** فمنها: أن لا يكون الإنسان متعلقاً بالدنيا ولا يستعبده المال، ولا يعتدي على الناس، ولا يفسد في الأرض، ولا يظلم، ولا يتكبّر، ولا يخون، ولا يسرف في حياته، ولا يغتاب أحداً...

هذه الصفات وأمثالها من الأمور التي يجب أن تتحقّق في ذات الإنسان فيصير إنساناً بكل معنى الكلمة، وتتمّ له بذلك القداسة. وبدونها لا يمكن أن يكون الإنسان مقدّساً، ولو كانت أرضه مقدّسة. فقداسة الأرض لا تعني دوماً قداسة الإنسان ـ كما أسلفنا ـ.

على أنه يتّفق أحياناً كثيرة أن تكون الأرض مقدّسة، ويكون الشعب أو الأمة التي تعيش عليها كافرة، أو قد يحصل العكس، كأن يكون الشعب صالحاً ـ كأفراد أو كجماعة ـ ويقيم على أرض غير مقدّسة... ومثل هذا ما تروي الكتب السماوية من حال الشعوب التي انتقم منها الله تعالى لكفرها، فطهّر منها الأرض، كما تروي رعاية الله تعالى للأمم الصالحة وتمكينها في الأرض وإبدالها من الكافرين في إرث الأرض وإعمارها...

أما نحن في لبنان، وبعد أن تحدثنا عن قداسة الأرض، وهي من الأمور الراسخة في نفوسنا، فإننا نربأ بأنفسنا أن تكون الأرض مقدّسة ولا يكون الإنسان في مرتبة القداسة. وإذا كان الله تعالى قد أورثنا هذه الأرض المقدّسة، فواجب علينا أن نسعى إلى مرتبة القداسة التي تجعل الأرض والإنسان متساويين في المرتبة، يؤثّر كل منهما في الآخر، فتكون للأرض ميزة على غيرها، ويكون للشعب ميزة على بقيّة الشعوب.

وإذا كنا نتحدث في هذا الموضوع، فإننا نقول ما نقوله ونحن نتطلّع إلى المستقبل، ـ وهو همُّنا ـ ونحاول أن نستفيد من لمعات المجد في الأيام السالفة، ولا نقف عند الأيام السوداء التي كانت عقول الناس فيها مرتعاً للشيطان، يصفر في آذانهم، فَيُصِمُّهُم عن السمع، ويقتل فيهم العقل وإرادة الخير.

● محبة الأوطان قُدْسُ الأقداس:

تعتبر محبة الأوطان شعوراً وجدانياً يربط الإنسان بوطنه، وهو الأرض التي يقيم عليها الإنسان، لما تمثّله في نظره من القيم والجمالات، وما تحمله في أحشائها وعلى

ظهرها... مما يشكّل روابط أساسية تشدّ الإنسان إلى أرضه فيألفها ويعشقها، وترتبط حياته بها، ويعتبر ـ لمعانيها ـ أرضاً مقدسة يتعلّق بها، وقد يضحّي في سبيلها بكل شيء، وحتى بالحياة. وذلك أن تلك الأرض قد صارت المال والعزّ والجاه والأهل والأولاد والأجداد والأحفاد والعرض والشرف والكرامة والأخت والزوجة... وكل هذه المفاهيم تصير من وجدان الإنسان، أو هي كل وجدانه.

ومحبّة الأوطان شعور غريزي في الإنسان، بل وفي الحيوان أيضاً، ينمو ويقوى في فتراتٍ دون فترات، وتقوّيه أحداث وتضعفه أخرى، دون أن يغيّر ذلك في أساس هذا الشعور الإنساني. وحتى صارت الوطنية وحب الوطن في أرقى درجات المشاعر الإنسانية، وحتى ربطها الدين بالإيمان. فاعتُبر «حبُّ الوطن من الإيمان»[٣٩]، واعتبر الإمام علي (ع) أن أكبر مذلّة تصيب الإنسان في أعزّ ما لديه أن تُنْتَهَك حُرُمات الأوطان، ويدخلها الأعداء، ولا يستطيع أهلها أن يحفظوا حُرمتها... حين يقول: «فوالله ما غُزي قوم في عقر دارهم إلّا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم، ومُلكت عليكم الأوطان...»[٤٠]. وبهذا يصير الدفاع عن الوطن واجباً مقدساً على الإنسان لا يستطيع الفكاك منه. كما تصير محبّة الأوطان واجباً أيضاً لا خيار للإنسان فيه، ولا انشغال له عنه.

أما اللبنانيون فقد أحبوا وطنهم لبنان، وتغنّوا بجماله وأنشدوا الأشعار وروَوا الروايات، ودبّجوا الخطب الكثيرة في امتداح هذا الوطن... كما يفعل سائر الناس بالنسبة لأوطانهم. وليس هذا غريباً عليهم، ولا هو كثير على لبنان أن يحبّه أبناؤه. ولكن الغريب أن يُحِبَّ كلُّ ومنهم وطنه حباً قد يصل به إلى درجة الجنون في الحب، ويتصوّر له أنه هو الذي يحبّ وطنه أكثر من سواه، وقد يتصوّر له أنه هو الذي يحبّ وطنه، وأنه لا أحدَ يحبّ هذا الوطن بمقدار حبّه له.

وهذه القضية ـ في نظرنا ـ لا تعدو أحد أمرين: **أولهما**: الحب الشديد للوطن والتعلّق به. وهذا الحب الشديد يورث الأنانية في النفس، وقد يوقع الإنسان في الوهم. **والثاني**: الجهل بالآخرين، وعدم تقدير الأمور على حقيقتها، ومحاولة الاستئثار بالمحبوب لوهم يصيبنا، ويجعلنا نعتقد أن الآخرين ليسوا مثلنا، أو أنهم لا يشاركوننا الشعور نفسه، أو أنهم لا يصلون في هذا الشعور إلى نفس المقدار الذي وصلنا إليه.

ولا يغيب عن بالنا أن السياسات القديمة، وبخاصة سياسة العثمانيين في بلادنا، سواءً في التعامل مع الإنسان في وطننا، أو في سن الأنظمة وممارسة السلطة والنفوذ على الأرض... أدّت بنا إلى التباعد والفرقة، والاختلاف في معنى الوطن، وإضعاف أواصر الأخوّة، وتأليب العصبيات، وإثارة المشاعر... وقديماً قيل: الإنسان عدوّ ما جهل.

---

(٣٩) حديث شريف.
(٤٠) خطبة الجهاد.

● ما لا يعرفه اللبنانيون من الشعر الوطني:

وعشنا في لبنان، نرى منه وجهاً واحداً لا نرى غيره. ونُعَلِّمُ فيه أموراً مجتزأة، ولا نرى الأرض كل الأرض، ولا السماء كل السماء، ولا الناس كلَّ الناس... ولا نفهم التراث كل التراث، ولا الحضارة كُلَّ الحضارة، ونكتفي بالجزء دون الكل...

وإذا كان الأمر يقتضي منا إعادة نظر في كل الأمور في سبيل إحقاق الحق، والعيش في أخوّة وسلام، على أرض السلام والمحبّة المقدّسة، فإن أول ما يجب أن نفعله هو أن نفهم وطننا، ونفهم شعبنا ونفهم أنفسنا... وأن ندرك أن لنا شركاء في الوطن يحبّونه كما نحبّه، إن لم يكونوا يحبّونه أكثر مما نحبّه.

نقول ما نقوله، وفي أذهاننا صورة عن محبّة اللبنانيين لوطنهم تعود إلى القديم القديم. وسنحاول في ما يلي أن نثبت بعضاً من هذا الشعر الذي لا يعرفه كثير من اللبنانيين.

من قصيدة للشيخ عبد الله نعمة[٤١]، يذكر فيها لبنان وهو في بلاد الغربة:

رعى الله طوداً قد نشأت بسفحه ... وحيّاه من دَرِّ السحاب بنافع
فإن به داري ومنزل جيرتي ... وملعب أترابي وروض مراتعي
فيا برق يمم سفح لبنان قاصداً ... ربوع أحبائي الكرام وسارع
وبلّغ سلامي في السفيح لمعشر ... هجرت لهم بعد الفراق مضاجعي
سقى الله أياماً تقضت بعامل[٤٢] ... فقد كان مسراها كوثب المسارع[٤٣]

ومن قصيدة للشيخ ابراهيم صادق[٤٤] يتشوق إلى وطنه وأهله:

يا رعى الله بلبنان مقاما ... وحمى في سفحها قوماً كراما
وسقى عهد الصبا في ظلها ... عارضٌ يُمطِرُها الغيث الركاما
يا خليليّ إذا ما جئتما ... بعد وَخْدٍ في فيافيها الخياما[٤٥]
فاقرأوا مني على سكانها ... وعليها أبد الدهر السلاما
جيرة جاروا على ضعفي وما ... رحموا صَباً مُعَنىً مُسْتَهاما[٤٦]

---

(٤١) من كبار علماء العامليين. وُلد سنة ١٢١٩ هـ/ ١٨٠٤ م وتوفي سنة ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٥ م.
(٤٢) عامل: جنوب لبنان.
(٤٣) مخطوطة جواهر الحكم للشيخ محمد مهدي مغنية، ص ٥٧٦.
(٤٤) من العلماء العامليين المشهورين. ولد في قرية الطيبة من قرى جبل عامل سنة ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦ م، وتوفي بها سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م.
(٤٥) الخيام: مدينة في جنوب لبنان.
(٤٦) الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، المجلّد ٢، ص ١٥٢.

ومن قصيدة للسيد كاظم الأمين[٤٧]، قالها وهو في العراق، يتذكّر وطنه، ويتمنّى لو يعود:

يا بلدة أصبحت لبنان ناضرة ... بين البلاد، بها حييت في بلد
طابت هواءً وطابت منظراً وصفا ... بها المقام لأهل الدين والرَشَد
إذا تذكرت فيها أعصراً سلفت ... أكاد أقضي من الأشجان والكَمَدِ[٤٨]...

وللشيخ حبيب الكاظمي[٤٩] وهو بأصفهان يتشوّق إلى لبنان:

سامر يلحو وأشواق تلح ... هاجها مَنْ ظَنَّ أن العذل نُصْحُ
نَهَبَ الصبر أدكاري سرحةً ... عند لبنان لها في القلب سَرْحُ
لا رعاني المجد إن لم يرني ... ولخيلي في ربى لبنان سَبْحُ[٥٠]...

ومن قصيدة للشيخ طالب البلاغي[٥١]:

قَسَماً بعيش قد مضى في عامل ... فيه السرور منادمي وقريني
إن شمتُ لبناناً لألثِمُ الثرى ... فَرَحاً ومن لي أن تَبَرَّ يميني[٥٢]

وله أيضاً من قصيدة بعث بها إلى الشيخ عبد الله نعمة سنة ١٢٧٤ هـ/ ١٨٥٧ م:

ألا من مبلغ لبنان عاملْ ... بأن الشوق في الأحشاء عاملْ
...
أَسفْحَ أحبتي هل بَعْدَ بُعْدٍ ... أراك وأُدْرِكَنْ ما كنت أمُلْ[٥٣]

وله أيضاً:

قَسَماً بلبنانٍ وجيرة سفحه ... وأقاحِهِ ومياهه وبهُضْبِهِ
والنرجس العطر الشذي وشقا ... ئق النعمان والورد الجنيّ بشعبه
إني إذا أمّ السفيحَ وأهلَهُ ... رَكْبُ العراق فمهجتي مع ركبه[٥٤]

---

(٤٧) هو السيد كاظم ابن السيد أحمد الأمين. ولد سنة ١٢٣١ هـ/ ١٨١٥ م، وتوفي في بغداد سنة ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٥ م. ودفن في النجف الأشرف. كان عالماً أديباً ومؤرّخاً.

(٤٨) أعيان الشيعة، المجلّد ٨، ص ٤٨٥.

(٤٩) كان حياً سنة ٢٦٩ هـ/ ١٨٥٢ م.

(٥٠) أعيان الشيعة المجلد ٤ ص ٥٤٤، ٥٤٥.

(٥١) كان حيّاً في السنة ١٢٧٤ هـ/ ١٨٥٧ م. وكان عالماً فاضلاً... هاجر إلى العراق من أول عمره، واستقرّ فيها، وبلغ أعلى المراتب العلمية هناك.

(٥٢) أعيان الشيعة، المجلد السابع، ص ٣٩٣ و٣٩٤.

(٥٣) المرجع السابق.

(٥٤) المرجع السابق.

● كُلُّنا نحب لبنان:

أشرنا في ما سبق من البحث إلى أن الشعور الوطني وحب الوطن من الأمور التي تلازم الإنسان، وتوافق هوىً طبيعياً عنده، وغريزة متأصّلة فيه، كتلك التي تدفع الأسد للدفاع عن عرينه، والنسر للدفاع عن عشّه، والنحل للدفاع عن خليّته... واللبناني ـ كغيره من الناس ـ يحسّ بهذا الشعور الوطني ويعبّر عنه. ولا نتخيّل إنساناً لا يحسّ بمثل هذا الشعور. ولو كان كل لبناني مواطناً في غير لبنان، لشعر تجاه وطنه بمثل ما يشعر به اللبناني تجاه وطنه.

ونحن نعرف حبّ اللبنانيين لوطنهم وتعلّقهم به، وعدم تفريطهم فيه. وقد ساعدهم على ذلك سجيّة حب الأوطان في النفس الإنسانية، وظروف السياسة والأحداث ـ عبر العصور ـ التي جعلت اللبناني في وطنه كالأسد في عرينه، يدافع عنه ويحميه ويصونه، أو يموت في سبيله.

وبعد أن كنا نرى الوطنية بعين واحدة، فقد صُرنا نرى الوطنية بالعينين معاً، فاكتملت الرؤية، وتوضّحت الصورة الوطنية في الأذهان. وصُرنا نرى الوطنية فعل إيمان بلبنان. وهذا الإيمان بالوطن مستمدّ من الإيمان بالله ـ على ما ورد في الحديث الشريف: حبُّ الوطن من الإيمان ـ ومن لا يؤمن بوطنه لا يؤمن بربّه. ومن لا يؤمن بربّه فلا دين له، ولا دنيا ولا آخرة.

ولبنان أرض مقدّسة ـ كما ورد في ما سبق من الحديث. والأرضُ المقدسة تحتاج إلى اثنين: واحدٍ يفهم معنى القدسية فيها، ويقدر هذا المعنى، ويفهم أبعاده، ومراميه... وواحدٍ يسعى جاهداً في نفسه أن يطهّرها من الشوائب، فيجعلها مقدّسة هي الأخرى.

وإذا اجتمعت قداسة الأرض وقداسة الإنسان معاً، كانت الأوطان هي الجنّة...

فإلى ظلال جنّة وارفة ندعوكم.

فلا تتأخّروا في الاستجابة.

ولنعمّر لبنان.